

هاتف

من سرير أبيض

لولا ملامحُ لي قديمًا عشتُّها
ما كنتُ أعْرِفُ أينَ حلَّ بنائي؟!

ضُمِّي إليك ملامحي ومعالي
ودفاتري اللائي وعَتَّ أسُمائي
إني نُسيتُ صحائفِي ومحابري
وأرقتُ ذاكَـرتي على أدوائِي!
أُمسي على أَلَمٍ وأصبحُ راجيًّا
أنَّ أَسْتريحَ فما يُفِيدُ رجائي!
فكانَ ذَنْبَ العالمينَ جَريمَتِي
وكأنَّما أخطأوهُمُ أخطائي!!

يا هذه السَّلوى تُخاطِبُني على
بُعْدٍ، وإنِّي عن جِواركِ ناءٍ
أدري ولا تدرينَ ما قَدْ حاقَ بي
وأَمْضُني، واسئَلِ أَمَنَ فضاءِي!
قد زلزلَ الأرضَ القَريرةَ جائراً
في صحوةٍ، وأغامَ صَحَوَ سَمائي
واغْتالَ من شَفَتِي رِواءَ قَصيدةٍ
بَكَرٍ - تَلَمَّ حُرُوفُها - خَضراءِ

مالي أرى الدُّنيا كأجنحة القطا
قد قُصِّصَتْ في حَفْلةٍ نَخراءٍ!
والأفقُ من حولي خيالٌ هاربٌ
مُتَرَنِّجٌ في بَرْدَةٍ شِوْهاءِ!
وأنا - ولم أَرني، ولم أَكْ غائباً
بين الحُشودِ - مُسَرَّبِلٌ بدمائي
بُدلتُ أثوابَ الحجيجِ جَبائراً
وثرى مِنِّي بملاءةٍ بيضاءِ!

رُدِّي إليَّ مَعازِفي وندائي
وتسَمَّعِي - رَغَمَ النوى - أَصْدائي
ما شئتُ أنْ أُهديَ إليك قِصائدي
مَكْلُوبَةَ الأشـواقِ والإهداءِ!
أو شئتُ أنْ أدنيَ إليك قِوافلي
جَرَحِي الطريقَ تَخَبُّ في إعياءِ
تَكلي الغناءِ تَخَوُّضُ في رَهجِ الأسِي
حُلُمًا غريبَ الوجهِ والاسماءِ!!
جيشُ الدُّخانِ يَنوُشُني ويسومُني
سَجَنِي الطَريدَ مُشَرَّدَ الأرجاءِ!
لا الرِّيحُ سالمتِ المصابيحَ التي
أشَّـعلَتْـهُنَّ، ولا الظَّلَامُ يُرائي
لا هادِنَ الشَّجَنِ العِصِيَّ مدامعي
رَفَقًا، ولا رَحِمَ الأنينِ دُعائي!
ما تلكَ؟ لا أدري عذابَ مَدينَتِي
أم أَمَّةَ الأحزانِ صَرنَ ردائي؟
يا لحظةَ مَخَرَتْ سَرايِدَ الضَّنَى
في غَفْلةٍ من أَعْيُنِ الأناءِ!
شَقَّتْ سِتارَ عُيوبِها مَجَنونَةً
تُصَمِّي قُودَ الحليمِ والأشياءِ
غَدْرًا ولا أدري: أَكُنْتُ حَيالِها
نَفْسِي، أم الشَّيْءَ المَحْمَلِ رائي؟!
وَجَعُ يُساكِبُنيهِ قَرَحٌ عاصِفٌ
كجَنُودِ نارٍ وَكَلَّتْ بِيالائي!
أَنَا الَّذِي قَدْ رَنَّتْ أَعْضَاؤُهُ
فَوسَعَتْ أَلَمَ المَدَى المَتَنائي؟
أَمْ أَنْ شَيْئًا آخَرًا زَرَعُوهُ في
جَسَدِي الضَّعيفِ يَتُّنُ كُلَّ مَساءٍ؟!
أَلَمْ يُفَرِّقْني حَصادَ مُغايِرٍ
وأَبَيْتُ أَجْمَعَ كُريَةَ الأَعْضاءِ!

شعر / د. أمين سالم



في غربة.. تَفَسُّو على الغرباء!
حتى رزقتُ الخلقَ رُوحاً صادقاً
ألمي، وأزكتُ بي مئى الأحياءِ
من أينَ قد هُرِّعُوا قلوباً رُفِرتُ
حولي نسيماً عاطراً الأفياءِ؟
لا يفتوونَ يرشرونَ جوانحي
أملأُ بهيجَ السرِّ والسرِّاءِ!
حملوا إليَّ رجاءَهُم نَعْويدةً
نَبْـوِيَّةَ الإيمانِ والإيحاءِ!

الله - ما حنَّتُ حُرُوفي، أو شَدَّتْ -
في فتية بذلوا بلا استدعاء!
صدروا عن النبلِ التقي سَجِيَّةَ
فسعى بخطواهم رسول وفاء
وزكوا كما النهرُ الكريمُ سماحةً
وصفَّتْ خَوالِجَهُم كعذب الماءِ
ما لونُ بعضهم - ولا لغتي لَهُم
لكن رباطُ ديانة .. وإخاء!
ما كنتُ أزعمُ أنني في معشر
تَهْدَى مروءتُهُم بلا استهداء
أو كنتُ أحسبُ أنني يوماً أرى
بعض الملائكِ حلَّ في بيـدائي!!

يا زوجتي يا أم أولادي التي
صادقتُ فيها ملجئي، ونجائي!
ضمي أحيي ببتني إليك وراقبي..
يوماً أعودُ من الشَّتاتِ النائي
ومتى أعودُ؟ وكيف؟ رُبْتُ نازح
عان.. قضى المولى له بقاء!

«لبّيك» في قلبي هُتافٌ هادرٌ
قد قلتها دمعا مع النُّزلاء!!
يا ويحَ مثلوجِ الفؤادِ يغالهُ
من لا يراه بطعنة رعناء!
غافلتُ أودية الشقاء وجُرَّتْها
وظننتُها ولتَ فكنَ ورائي!!

يا هذه السَّلوى التي ناجيتها
وأنا سـجـينُ الخطو .. والإيواءِ
حاولتُ أن أبـدو كيـانَ مُجالِدِ
والزُّقـرة الحـرّى تشدُّ بكائي!
وحرصتُ أن أسعى إليك مضاحكا
عبر الأثير مُراوغاً أنبائي!
أخفيتُ نازلتني التي قد قوَّضتُ
رُكني، وعائتُ في مدى أنمائي
أخشى عليك بأن تُراعي ساعةً
أو أن يبيتَ على الأسى أنبائي!
أو أن يمسك طائفٌ من قصّتي
فتُساكنين على البعادِ شقائي!!

لا تفزعي فالله كان مجاوري
وملاطفي في محنتي.. وعزائي
قد كنتُ أحسبُني غريباً ضائعاً

يقول ابن الأثير في تاريخه:

«قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل

الإسلام وفيه إلى يومنا هذا -

يعني أواخر القرن السادس

الهجري - فلم أرَ بعد الخلفاء

الراشدين وعمر بن عبدالعزيز

أحسن سيرة من الملك العادل نور

الدين ولا أكثر تحرياً للعدل

والإنصاف منه. قد قصر ليله ونهاره

على عدل ينشره وجهاد يتجهز له ومظلمة

يزيلها وعبادة يقوم بها وإحسان يؤليه

وإنعام يسديه، فلو كان في أمة لافتخرت

به فكيف ببيت واحد؟» ثم يقول بعد هذا:

«ومما دعا الصليبيين في القدس إلى أن

يقولوا (ابن القسيم - لقب نور الدين -

له مع الله سر فإنه ما ظفر علينا بكثرة

جنوده وعسكره، وإنما يظفر علينا

بالدعاء وصلاة الليل فإنه يصلي

بالليل ويرفع يده إلى الله

ويدعو، فإله سبحانه وتعالى

يستجيب لدعائه ويعطيه سؤله

وما يرد يده خائبة فيظفر

علينا».

ولم يكن ابن الأثير مبالغاً

حين عد نور الدين سادس

الخلفاء، وما كان له أن يبالغ

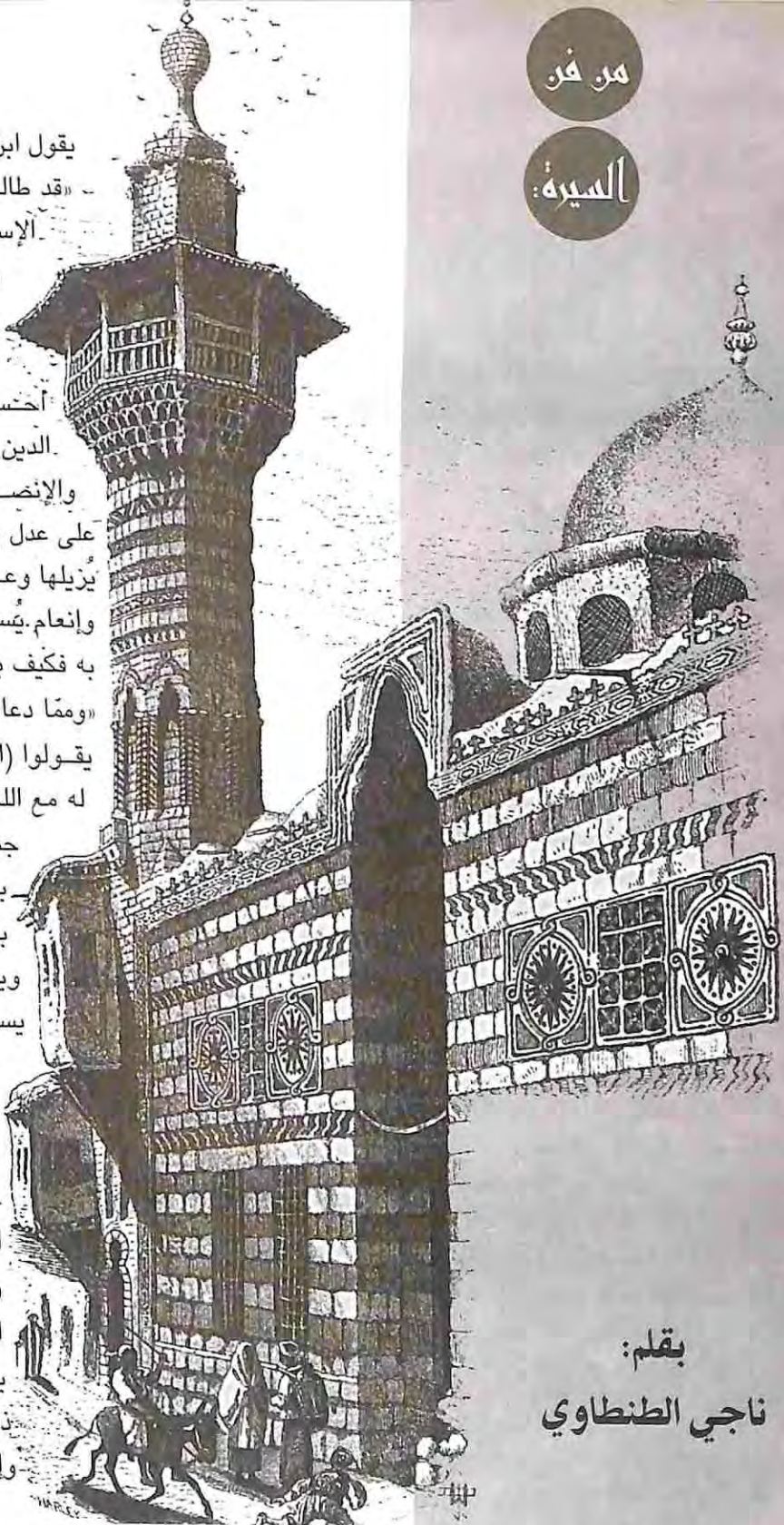
وهو الذي عاش في ذلك

العصر، وعرف منه ما لم

يعرفه سواه فإن من قرأ سيرة

ذلك الملك العظيم زاد إعجاباً به،

وإكباراً له.



بقلم:

ناجي الطنطاوي

دار العدل في دمشق

● نحن نحفظ الطريق، أفلا نحفظ الدين ونمنع منه ما يناقضه؟!!

حوالي عام ٦٠٨ - كل شهر تسعة آلاف دينار سورية، ليس فيها غير مَلِكٍ صحيح شرعي ظاهراً وباطناً. وهو أول من بنى دار الحديث في دمشق ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقفاً كبيرة، أنشأها للحافظ ابن عساكر، واشترط أن يتولى التدريس فيها أَعْلَمُ رجل بالحديث في دمشق واجتمع فيها من المدرسين والمحدثين ما لم يجتمع في غيرها من دور الحديث، واشتهرت وطار ذكرها في البلدان، وأول من تولى مشيخة الحديث فيها أبو عمرو بن الصلاح صاحب المقدمة المشهورة في علوم الحديث.

وكان إلى جانب ملكه الواسع - بلاد الشام والجزيرة والموصل ومصر - ورعاً زاهداً لم يلبس قط ما حرّمه الشرع من حرير أو ذهب أو فضة وكان متحرياً في المطعم والملبس، لا يأكل ولا يلبس، ولا يتصرف فيما يخصه إلا من مَلِكِهِ. وأحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحلّ له من الأموال، فأخذ ما أفتوه بحلّه ولم يتعده إلى غيره.

وكان يجاهد العدو في الليل والنهار وهو أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة، يباشر القتال بنفسه، ولم ير على ظهر فرس قط أشجع منه ولا أثبت، يقدم أصحابه، ويتعرض للشهادة. وبلغ من ثباته في الحرب أن الفرنج زحفوا إلى عسكره في إحدى المعارك، فأصاب بعض مقدّمي جيشه قسلاً، فتفرقوا، وبقي هو ثابتاً في مكانه في عدة يسيرة من الشجعان في وجوه الفرنج، وظلوا يطلقون عليهم السهام، ويقتلونهم بالعشرات حتى ولى الفئج منهنّ من، وعاد نور الدين إلى مخيمه سالماً في جماعته.

ولما التقى الصليبيين في تل حارم - شمالي سورية - انفراد تحت التل، وسجد لربه عز وجل ومرغ وجهه، وتضرع، وقال: «يارب هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك على أعدائك، إيش فضول محمود في الوسط (محمود هو نور الدين)؟ اللهم انصر دينك ولا تنصر محموداً. من هو محمود حتى ينصر؟» وبهذا الروح كان يجاهد أعداءه على كثرتهم، ويدافع عن حوزة الإسلام والمسلمين.

■ دار العدل

كان نور الدين يلقب بالملك العادل، وهو جدير بهذا اللقب وأخباره في هذا الباب كثيرة ومشهورة، فهو لم يترك في مملكته ضريبة ولا مَكْساً ولا عُسْراً إلا أبطله، وأذاع منشوراً بإبطال المظالم وإطلاقها، ومما قاله في ذلك: «إنني أفكر في وال وليّته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي

ونور الدين هو محمود بن زنكي الملقب بعماد الدين ابن آق سنقر. وكان ملكاً على الشام والجزيرة ومصر، وكان من المالك، وكان إلى جانب شجاعته الخارقة التي أدهشت أعداءه وملأتهم رعباً، رحيمًا يفيض فؤاده شفقة على رعيته، وكان إلى جانب اقتصاده يبذل المال للعلماء والفقهاء والقراء والمتعبدین، ويقول: والله إنني لأرجو النصر بأولئك، فإنما تُرْزَقُونَ وتنصرون بضعفائكم، فكيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطئ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلا إذا رأيته بسهام قد تخطئ وتصيب؟ ثم إن هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرّفه إليهم فكيف أعطيه غيرهم؟

وكانت عادته في الصدقة أن يحضر جماعة من أمثال البلد من كل محلة، ويسألهم عن يعرفون في جوارهم من أهل الحاجة، ثم يصرف إليهم صدقاتهم. وقد حسبوا مرة ما تصدّق به على الفقراء في أشهر قليلة فزاد على ثلاثين ألف دينار.

وكان كثير المطالعة للكتب العلمية وحَدَّث في حلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوه. وكان فقيهاً على مذهب الإمام أبي حنيفة متبعاً للأثر النبوية، يحب العلماء والفقهاء ويكرمهم ويحترمهم ويحسن إليهم.

ولم يكن أحد من الأمراء يجلس بلا إذن منه سوى الأمير نجم الدين أيوب، ومع هذا فقد كان إذا دخل أحد من الفقهاء قام له، ومشى خطوات وأجلسه معه على سجاده في وقار وسكون. وسمع مرة من أحد العلماء في مجلسه أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج متقلداً سيفاً، فاستفاد أمراً لم يكن يعرفه، وصار يقول متعجباً: يتقلد السيف - وكان جنده يربطون السيف بأوساطهم - فلما كان من الغد خرج من القلعة وهو متقلد السيف وجميع عساكره كذلك.

والإصلاحات الدينية التي قام بها نور الدين كثيرة فقد منع شرب الخمر وبيعها في بلاده، وكان يحدّ شاربها الحد الشرعي، وكل الناس عنده فيه سواء وكان لا يمكن أحداً من الناس من إظهار ما يخالف السنة، ومتى أقدم على ذلك أحد أدبه بما يناسب بدعته، وكان يبالغ في ذلك، ويقول: نحن نحفظ الطرق من لص وقاطع طريق، والأذى الحاصل منها قريب، أفلا نحفظ الدين ونمنع منه ما يناقضه وهو الأصل. وأكثر - في سنة وفاته - من تعقبه آثار الأثام وإسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخراج. وكان شعار الرفض والتشيع ظاهراً في زمانه بدمشق وغيرها، فكافحه بكل قوته، وأمات كثيراً من بدع الشيعة، ومن أظهرها التأذين بكلمة (حي على خير العمل)، والتظاهر بسب الصحابة. فأنكر ذلك كله إنكاراً شديداً، وساعده على ذلك جماعة من أهل السنة، فهاج الإسماعيليون وأهل التشيع وماجوا، ثم سكتوا خوفاً من هيبة نور الدين وسطوته المشهورتين. واستعان على ذلك بتشديد المدارس، وتعليم أبناء الشعب فيها الدين الإسلامي الصحيح، والعلم الخالص من كل شائبة وكل بدعة. وهذه المدارس كثيرة في دمشق وحلب، ووقف عليها وقفاً كثيرة، حتى قال ابن الأثير: «بلغني من عارف بأعمال الشام أن ووقف نور الدين في وقتنا هذا -



■ عندما أبطل

الملك العادل المظالم

والغنى الضوائف

علم المذاخير

ومن أعجب الأمور أن نور الدين عدل بعد موته! وذلك أن إنسانا كان بدمشق غريبا استوطنها، وأقام بها لما رأى من عدل نور الدين. فلما توفي نور الدين تعدى بعض الأجناد على هذا الرجل فشكاه فلم يُنصف، فنزل من القلعة، وهو يستغيث ويبيكي وقد شق ثوبه وهو يقول: يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا. أين عدلك؟ وقصد تربة نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى وكلهم يبكي ويصيح. فوصل الخبر إلى صلاح الدين الأيوبي فقيل له: احفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك. فأرسل إلى ذلك الرجل وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه، وطب قلبه، ووهب له شيئا وأنصفه. فبكى أشد من الأول فقال له صلاح الدين لم تبكي؟ قال أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته. فقال صلاح الدين: وكل ما ترى فينا من عدل فمته تعلمناه.

وقد احترقت دار العدل في عهد الشراكسة، وأعيد بناؤها على طراز المماليك، وأصبحت مقرا لحكام دمشق إلى أن آل حكم دمشق إلى آل العظم فاستبدلوا بها دار المشيرية المعروفة التي احترقت أخيرا، وبقيت دار العدل خاوية على أطلالها حتى تهدمت اليوم ولم يبق لها أثر، ومكانها في سوق الأروام المتفرع عن سوق الحميدية المسمى أيضا سوق النسوان، ولم يبق من البناء الشركسي سوى قسم من حائط مرتفع.

رحم الله العدل ورحم الله الملوك والرؤساء العادلين.

■ المراجع

الكامل لابن الأثير - الروضتين لأبي شامة - تاريخ ابن كثير - تاريخ أبي الفداء - النجوم الزاهرة - ابن خلكان

وأعواني وأخاف المطالبة بذلك وكان كثيرا ما يذهب مع من يدعي عليه إلى دور القضاء والحكم ويقف إلى جانبه أمام القاضي ليفصل بينهما ولو عرف أن الحق معه، ليعلم المسلمين آداب التقاضي والخضوع للحق وهذا الروح هو الذي دفعه إلى بناء دار العدل.

أما سبب بنائها المباشر فهو أنه لما طال مقامه بدمشق كثرت الشكاوي إلى القاضي كمال الدين الشهرزوري من الأمراء فأنصف القاضي بعضهم من بعض، ولكنه لم يجسر على الإنصاف من أسد الدين شيركوه (كان في أعلى منزلة عند نور الدين) فأنهى الحال إلى نور الدين، فأمر ببناء دار العدل. وأقبل البناؤون على تشييدها، ولما فرغوا منها جلس فيها نور الدين بنفسه. أما أسد الدين فإنه لما سمع بذلك أحضر نوابه جميعهم وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي، وإلا فمن هو الذي يمتنع على القاضي كمال الدين؟ والله لئن أحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبته، فامضوا إلى من بينكم وبينه منازعة في ملك فافصلوا الحال معه، وأرضوه بأي شيء أمكن، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا اشتطوا في الطلب فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهل علي من أن يراني نور الدين بعين أبي ظالم، أو يساوي بني وبين أحاد العامة في الحكومة. فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم به، وأرضوا خصماءهم، وأشهدوا عليهم.

بقي نور الدين ينتظر مدة فلم يحضر عنده أحد يشكو أسد الدين، فقال لكامل الدين: ما أرى أحدا يشكو من شيركوه. فعرفه كمال الدين، فسجد شكرا لله تعالى وقال: الحمد لله الذي جعل أصحابنا ينصفون من أنفسهم قبل حضورهم عندنا.

وصار نور الدين يجلس في دار العدل يومين في الأسبوع مع القاضي والفقهاء، وينظر فيها في أمور الرعية، ويكشف الظلمات، لا يطلب بذلك درهما ولا دينارا ولا زيادة ترجع إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، وطلباً للثواب والزلفى في الآخرة، وأمر بحضور العلماء والفقهاء، وبإزالة الحاجب والبواب حتى يصل إليه الضعيف والقوي والفقير والغني، ويكلمهم بأحسن الكلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي من دفع الضعيف بالمقال، ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكاملة معه، فيأمر بمساواتها لها فتغلب خصمها طمعا في عدله، ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله! فيظهر الحق عنده فيجري الله تعالى على لسانه ما هو موافق للشرعية، ويسأل العلماء والفقهاء عما يشكل عليه من الأمور الغامضة فلا يجري في مجلسه إلا محض الشرعية.

ذكر أبو الفتح الأشتري في سيرة نور الدين قال: «حضرت في دار العدل في شهر ربيع الأول سنة (٥٥٨)، فقام رجل وادعى على الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئا بغير حق قال وأنا مطالب بذلك. فقال نور الدين أنا ما أعلم ذلك فإن كانت لك بيعة تشهد بذلك فهاتها وأنا أرد إليك ما يخصني فإني ما ورثت جميع ماله، كان هناك وارث غيري، فمضى الرجل ليحضر البيعة فقلت في نفسي: هذا هو العدل».